الأُنوثَةُ في زَمَنِ السُّوق:
قِراءَةٌ في تَحوُّلِ النَّسَوِيَّةِ المُعاصِرَةِ بَينَ الاستِهلاكِ وفَلسَفَةِ الدِّينِ

أ. د. محمد المحيفظ[٢] نسيمة سعدي[١]

ملخّص

يقدِّم هذا البحث دراسة فلسفية معمَّقة عن تحوّلات الأنوثة والحركة النسوية المعاصرة في ظلّ هيمنة مجتمعات السوق الرأسمالية الحديثة وثقافة الاستهلاك السائدة اليوم. يستعرض الكاتبان بالتفصيل التطوّر التاريخي للأطروحات الفكرية النسوية عبر موجاتها الثلاث؛ بدءًا من المطالبة بالمساواة والحقوق السياسية والتعليمية في عصر التنوير، ثمّ الانتقال نحو نقد الهيمنة الذكورية وتفكيك الأدوار الجندرية، وصولاً إلى فكر ما بعد الحداثة المعاصر الذي يركِّز على مفاهيم الاختلاف والتعدُّدية ورفض الهُويّات الثابتة والصلبة. وينتقد المقال مظاهر الحياة السائلة المعاصرة، مبيِّنًا كيف نجح اقتصاد السوق في احتواء الخطاب النسوي التحرُّري، وتحويل جوهر الأنوثة إلى مادّة تسويقية وسلعة إشهارية عابرة، تحكمها منظومة الموضة والدعاية الرقمية والنزعة النرجسية، كما يحفر البحث في الجذور اللغوية والثقافية التي رسَّخت التبعية والدونية للمرأة عبر التاريخ. ويخلص المقال في خاتمته إلى ضرورة مواجهة أزمة التسليع المعاصرة من خلال استدعاء أطروحات فلسفة الدين، وإحياء منطق المسؤولية والواجب الخُلُقي تجاه المطلق والعالَم، لإعادة الاعتبار للأبعاد الروحية والخُلُقية الجوهرية في الوجود الإنساني المُعَاش.

الكلمات المفتاحية: الأنوثة، السوق، الاستهلاك، الثقافة، المساواة، الحُرّية، الأخلاق.

١ - طالبة باحثة سلك الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة - المغرب.
٢ - أستاذ التعليم العالي، جامعة ابن طفيل، القنيطرة - المغرب.

Femininity in Market's Age:
Review of the Transformation of Contemporary Feminism between Consumerism, Philosophy of Religion

Prof. Mohammad El-Mahifid(2) Nassima Saadi(1)

Abstract

This research offers an in-depth philosophical study of the transformations of femininity and the contemporary feminist movement under the dominance of modern capitalist market societies and today's prevailing consumer culture. The authors meticulously examine the historical development of feminist intellectual discourse through its three waves. The waves are beginning with the demands for equality and political and educational rights during the Enlightenment, then moving towards a critique of male dominance and the deconstruction of gender roles, culminating in contemporary postmodern thought that focuses on the concepts of difference and pluralism and rejects fixed and rigid identities.

The research analyzes the manifestations of contemporary fluid life, demonstrating how the market economy has successfully co-opted the liberating feminist discourse and transformed the essence of femininity into a marketing commodity and a fleeting advertising product, governed by the systems of fashion, digital advertising, and narcissism. It also delves into the linguistic and cultural roots that have historically perpetuated the subordination and inferiority of women. The research concludes by emphasizing the necessity of confronting the contemporary crisis of commodification by invoking the tenets of the philosophy of religion and reviving the logic of responsibility and moral duty towards the absolute and the universe, in order to restore the essential spiritual and ethical dimensions of lived human existence.

Keywords:

Femininity, Market, Consumption, Culture, Equality, Freedom, Morality.

1 - PhD student, Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Tofail University, Kenitra - Morocco.

2 - Professor of Higher Education, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco.

مقدّمة

يتشكّل الوعي الأنثوي بالانخراط في مشروع حُرّ، يحوّل الإرادة إلى طاقة مبدعة ومحفّزة على الفعل المستقلّ والتحرُّر، لكنَّ الحُرّية دائمًا ما توجد بطابع الشرط القائل إنَّ الشخص الحُرّ هو الشخص المسؤول عن ذاته والعالم الذي ينتمي إليه، بيد أنَّ مفهومًا متشعّبًا، كمفهوم الحُرّية، لا يخلو من تقاطعات تتشكّل في ثناياها الدلالة، خاصّة إذا ما نظرنا إلى مفهوم الحُرّية في ارتباطه بالنظام الرأسمالي، باعتباره تلك القوّة الناعمة التي تجعل الكلّ حُرًّا يتصرّف بلا قيد، لكنَّ خلف الحُرّية التي تبدو للكلّ حقيقة لا غبار عليها أزمة نقص في الحُرّية التي تُبنى على دعائم الوعي، والقصدية، والمسؤولية.

ومنه، فالحاجة إلى الحُرّية والحاجة إلى التفاعل الاجتماعي لا تنفصلان، ومع ذلك فهما على طرفي نقيض؛ فمع توغّل الفردانية في العالم الحديث، تُرك العالم، وتراجعت فيه مساحات الفعل في المجتمع الذي يُعَدّ الفضاء العام والمشترك بين الجميع وفق غايات عامة ومشتركة، لصالح العالم الخاصّ الذي يمارس فيه الفرد حُرّيته الاستهلاكية دون تضحية أو تأمّل، في الوجه الجديد للتبعية السوقيّة.[1]

١ - زيجمونت باومان: الحرية، ص١١.

انطلاقًا من هذه الأرضية، حاولنا أن نضع العين على أربع نقاط رئيسة في هذه الدراسة، أوّلها: تبيان التحوّل التاريخيّ للحركة النسويّة التي نشأت بالتفاعل مع ما هو اقتصاديّ، حيث شكّلت تجربة الموجات الثلاث انعطافًا وتحوّلاً لم يستقرّ في الدفاع عن الحُرّية والحقوق على قدم المساواة، بل جرت مراجعة مجمل نقاطه وتفاعلاته الاجتماعيّة، حيث شملت هذه المراجعة مفهوم المساواة الذي كان الركن الرئيس في الفكر النسويّ، باعتبار أنَّ المساواة ليست قضيّة نوع، بل قضيّة بحثيّة في المقوّمات الأساس للدولة العادلة، التي يظهر فيها خطاب المساواة إقرارًا بخطر واقع اللامساواة في العالم؛ وثانيًا: توضيح الحقيقة التي جرى فيها احتواء الخطاب النسويّ التحرُّريّ من طرف المَعبد الاقتصاديّ والسوق الاستهلاكيّة، التي جعلت الأنوثة كائنًا منفعلاً بأزمة ما بعد الحداثة التي سيطر عليها التوجّه النفعيّ والرأسماليّة، ما أدّى إلى تغييب الدور القيمي والمسؤولية الخُلُقية للنساء، واختزالهنّ في ذواتٍ تفتقر إلى العمق الروحي، لتُحْصَر تجلّيات التجربة النسوية كاملةً داخل فلك الثقافة الاستهلاكية؛ وثالثًا: يُظهر هذا الشقّ أنَّ الأزمة الحقيقيّة للأنوثة ليست في مَطمح التساوي مع الرجل، بل في تأنيث الثقافة والبحث عن تجربة الحضور في الفكر واللغة؛ ورابعًا: حاولنا تبنّي موقف الأنوثة بوصفها تمثيلاً للإنسانيّة بالقرب من المطلق الذي يجعل الأنثويّ يعيد الاعتبار للخُلُقيّ والروحيّ في الإنسان، بعدما جرى قتل كلّ ما هو أصيل وثابت، وإحياء منطق التغيّر والسيولة في المجتمعات المعاصرة. إثر هذه الأزمة، حاولنا أن نقدّم مخرجًا يمنحنا النجاة والمعنى، وذلك بتبيان الدور الذي يمكن أن تلعبه المسؤولية تجاه المطلق، والعالم، والذات، في الامتثال للواجب الخُلُقيّ، والمحافظة على الوجود الإنسانيّ.

في هذا السياق، يصبح من المشروع طرح الأسئلة الآتية: كيف يمكن أن تتحرَّر الأنوثة؟ ومَن يتحكّم في معنى التحرّر؟ وكيف يمكننا ربط الحُرّية بالمسؤولية الخُلُقيّة باعتبار ذلك شرطًا إنسانيًّا؟

أوّلًا: الأنوثة تاريخيًّا بين المقاومة والتبعيّة

نشأت الحركة النسويّة في بداياتها مطالبةً بحقوق مصيريّة، كانت نتاجًا للتحوّلات الاقتصاديّة العالميّة؛ فبالنظر إلى التاريخ، نجد أنَّ الفكر الاقتصاديّ كان محرّكًا رئيسًا للمطالبة بالحقوق،

والسعي لتحسين جودة الحياة، وتصريف «قلق السعي إلى المكانة» كما وصفه (ألان دو بوتون- Alain de Botton). إنَّ هـذا الارتباط الوثيق بين الحقـوق والاقتصاد يدفعنا لتأمّل الحقبة التي أعقبت الثورة الصناعيّة والنهضة الثقافيّة، حيث كانت الأسرة، بصفتها مالكةً للأرض، تقوم بدور المنتج والمستهلك في آنٍ واحد. ومع التطوّر العلميّ ودخول الاختراعات إلى المصانع، تحوّل المصنع إلى بيئة عمل يكسب منها ربّ الأسرة ما يسدّ به احتياجاته للبقاء. هذا التحوّل ربط القيمة بالعمـل المنتج، ما أدّى إلى تصنيـف أيّ عمل لا يدرّ دخلاً على أنَّه غـير منتج. وبناءً على هذا التصنيف القائم على الإنتاجيّة، اكتسـب عمل الرجل قيمـةً ماديّةً، في حين أُقصيَ عمل المرأة، بفعل الأوضـاع الاقتصاديّة، ليُصنّف عملاً غيرَ منتج. يطرح هذا الواقع تسـاؤلات جوهريّة عن ماهيّة القيمة؛ هل يسـتمدّ الفرد قيمته من الإنتاج والعمل فقط؟ وهل تضمن المكانة الاجتماعيّة للمـرأة، التي حُـصرت تاريخيًّا في المجال الخاصّ، حقوقهـا؟ أم أنَّ الطريق للعدالة يكمن في التمرّد على هذا الوضع والسعي لنيل المكانة الاجتماعيّة القائمة على المساواة والحُرّية؟[1]

تُعَدّ هذه النتيجة، اجتماعيًّا واقتصاديًّا، فكرةً سـتتحكّم في الواقع المعيش للنسـاء والرجال، وسـتوجّه الذات إلى البحث عن حقيقتها. لذلـك فالمعيار الذي يمكن أن نفحص به الفكرة في الذهـن هو تطابقها مع الواقع الاقتصـادي المتعيّن. ومنه فالقيمة التـي منحها الاقتصاد للأفراد سـتخلق صراعًا بين المـرأة والرجل في المَهام المنوطة بكلٍّ منهما، بـين منتج في الفضاء العام ومسـتهلك في الفضاء الخاص. والصراع على المكانة الاجتماعية سـتزداد وتيرته وغليانه بوفرة المصانع والحاجة الماسّة إلى اليد العاملة. لذلك ستتّجه الطبقة المالكة إلى وسائل الإنتاج لتلبية رغبـة المرأة الملحّة في أن تكون منتجةً ومدرّةً للدخل، ومنه سـتعتبر المرأة في نظر الرأسـمالي صفقةً مربحةً أكثر؛ لأنّها تريد الخروج من الوضع السابق الذي اتّسم بعدم الإنتاجية داخل الفضاء الخاص.

شكّلت هذه الأرضية التغذية الأساس للبوادر الأولى للحركة النسوية، التي تُعَدّ إحدى أعراض الثورة الصناعية؛ إذ وفّرت هذه الثورة تاريخيًّا الشروط الاجتماعية والاقتصادية لظهور الموجات

1 -Alain de Botton: Status Anxiety.

اللاحقة للحركة النسوية. وقد ترك هذا الوضع أثرًا تاريخيًّا عميقًا في الالتفاف حول مبادئ عصر التنوير، الذي جاء ردّ فعل ضدّ ظلم المجتمع الأبوي السلطوي القائم على امتيازات موروثة للآباء (كرجال الدين والسلطة). وبذلك، كانت الثورة نتيجةً حتميةً لحالة الظلم المستندة إلى الموروث والأهواء بدلاً من العقل، الذي أصبح شعارًا ومبدأً للحداثة؛ إذ رفضت الحداثة الموروث الفكري السائد وأخضعته للفحص والنقد، معتمدةً على آليات تعصم الفكر من أخطاء الماضي التي حُرِم فيها الفرد من الحُرّية والاستقلالية، حيث كان يُمنع من أن يكون سيّد تاريخه، أو أن يمتلك ذاته بوصفه كائنًا عاقلاً يدرك نفسه والعالم من حوله بعيدًا عن هيمنة السلطة الأبوية.[1]

انطلاقًا من هذا الوضع التاريخي لن يُحرَم أيّ شخص من أن يسأل عن ذاته وموقعه الوجودي الأصيل: كيف أعيش وأتصرّف؟ وعلى أيّ خُطًى يمكنني السير وأنا أعيش؟ إنّ هذه الأسئلة عامّة وموحّدة، لكنّها ستجعل المرأة تتأمّل في المبادئ الكبرى التي بُني عليها عصر التنوير: العقل الذي يتصوّر ماهيّة الأشياء وجوهرها، والحُرّية الفردية والمساواة الطبيعية بين البشر. وبالتالي سيكون السؤال الجوهري في قضية المرأة: إذا كان الناس جميعهم متساوين، فلماذا تُستثنى النساء؟ إنّ هذا السؤال هو النار التي ستجعل التناقض يبرز على السطح؛ لأنّ الإنسان واحد، والعقل نور يحمل شعلته كلّ فرد، سواء كان رجلاً أم امرأةً، سيّدًا أم عبدًا، طفلاً أم شيخًا، والنظر التنويري لا يمكن أن يكون خطابًا متناقضًا مع الجانب العملي. لذلك عُدَّ الفكر التنويري فكرًا أقصى النساء وحرمهنّ من تطبيق المفاهيم التي شكّلت جوهر هذا العصر، الحرمان الذي سيتشكّل بوصفه حركةً مضادّةً لسير التاريخ، من خلال النقد الداخلي لمبادئ التنوير والمطالبة بتوسيع مبادئه لتشمل النساء والرجال على حدٍّ سواء، ولنا في فكر (جون جاك روسو--Jean Jacques Rousseau) خير مثال على المكانة التي يجعلها الفيلسوف للمرأة في كتاباته، ويُعَدّ موقف (روسو) من المرأة مثالاً واضحًا على التوتّر الداخلي في فكر عصر التنوير، بين المبادئ النظرية والتطبيق الاجتماعي. ففي الوقت الذي دافع فيه (روسو) عن الحُرّية والمساواة في كتابه العقد الاجتماعي، ظلّ هذا التصوّر موجّهًا إلى الرجال باعتبارهم مواطنين فاعلين في المجال

١ - نرجس روكر: فيمينيزم: مفهومها، أصولها النظرية وتياراتها الاجتماعية، ص٣٣.

العام، بينما استُبعدت النساء من هذا الأفق السياسي، وهو ما يكشف عن حدود التصوّر التنويري للمواطنة.[١]

وفي كتابه «إميل» أو «التربية»، يبلور (روسو) رؤيته التربوية للمرأة من خلال شخصية «صوفي»، حيث يؤكّد أنَّ طبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل، وأنَّ وظيفتها الأساس تتمثّل في تربية الأبناء وإرضاء الزوج. ومن ثَمّ، ينبغي أن يكون تعليمها موجّهًا نحو هذه الغايات، لا نحو الاستقلال العقلي أو المشاركة في الحياة العامة، وهو ما يعكس تصوّرًا وظيفيًّا للعلاقة بين الجنسين قائمًا على التكامل لا المساواة، ولا يوجد أيّ تماثل بين الرجل والمرأة من حيث الجنس، وحسب قوله: «ليس الذكر ذكرًا إلا في بعض الأحوال، والمرأة امرأة مدى حياتها أو مدى فتوّتها على الأقلّ، وكلّ شيء يذكّرها بجنسها بلا انقطاع».[٢]

وقد أثار هذا الموقف انتقادات مبكّرة من داخل الفكر التنويري نفسه، خاصّة لدى (ماري وولستونكرافت-Mary Wollstonecraft) في كتابها «A Vindication of the Rights of Woman»، حيث رفضت ربط دونية المرأة بالطبيعة، واعتبرت أنَّ ما يبدو ضعفًا هو نتيجة لحرمانها من التعليم. وبذلك، أعادت توظيف مبادئ التنوير ذاتها، العقل والمساواة، لنقد إقصاء النساء والمطالبة بإدماجهنّ في المجالين التربوي والسياسي.[٣]

بناءً على ذلك، يجسّد (روسو) مفارقة جوهرية؛ فهو من جهة يُعدّ من أبرز منظّري الحُرّية في العصر الحديث، ومن جهة أخرى يكرّس نظرة تقليدية لدور المرأة. هذه المفارقة هي التي دفعت الفكر النسوي لاحقًا إلى تجاوز حدود التنوير، من خلال نقده من الداخل وتوسيع مبادئه لتشمل حقوق المرأة على قدم المساواة.

لم يكن خطاب الحداثة هو الباب الوحيد الذي تأثّرت به المرأة، بل كان للخطاب الليبرالي أثرًا مماثلاً؛ فهو خطابٌ يثمّن قيمة الفرد ويجعل المسألة الحقوقية مَطلبًا ساميًا؛ نظرًا إلى مركزية الفرد في الكون. فكلّ إنسان، بغضّ النظر عن نوعه، هو قبطانٌ لسفينته؛ يُبحر بها نحو

1 - Jean-Jacques Rousseau: The Social Contract, trans. Maurice Cranston.

٢ - جون جاك روسو: إميل، ص٣٧٨.

3 - Mary Wollstonecraft: A Vindication of the Rights of Woman, ed. Janet Todd.

الوجهة التي يختارها، بوصفه كائنًا حُرًّا تتحقّق حريّته عبر مبدأ ملكية الذات لذاتها، ويتساوى مع بني جنسه في الشروط الاجتماعية. ومن هنا، فإنَّ تاريخية الإنسان جعلت منه كائنًا مناهضًا للسلطة، وغير منتمٍ إليها؛ لأنَّ السلطة تُشعره بالتناقض بين الخطاب المثالي الشامل الذي لا يقرّ بتباين القول والفعل، وبين واقع الأشياء وتمظهراتها. فخطاب الحُرّية والمساواة يواجه واقعًا من النفي يتجسّد في الحياة المعاشة؛ إذ إنَّ الرغبة في الحُرّية هي وليدة واقع الكائن المقيّد بالشروط السلطوية، كما أنَّ الرغبة في المساواة هي دليل قاطع على وجود التفاوت الاجتماعي وغياب شروط العدالة.

ومنه، يمثّل نداء الحداثة وشعار الليبرالية فرصةً للترافع أمام السلطة بشأن حقوق الفرد، ومساءلة الظروف الاجتماعية، وفضح التناقض الذي تعيشه الليبرالية بين واقعٍ مُثقل بالفوارق والظلم، وبين شعارات فكرية يقرّها العقل، فإدراك هذا التناقض يدفع النساء إلى مقاومة الوضع السائد، وهو ما نلمسه في أفكار الموجة الأولى للنسوية، التي اعتبرت وعود الليبرالية متناقضة، حيث أسهمت في تعميق الفوارق الاجتماعية؛ نتيجة ارتكازها على مبادئ رأسمالية.

بدأت مكاسب الموجة الأولى من الحركة النسوية تخضع للمراجعة النقدية؛ فقد أدركت النساء أنَّ العدالة هي تطبيق فعليّ للقانون وحماية للحقوق التي يتمتّع بها الجميع دون تمييز، وأنَّ أي قانون لا يترجم إلى واقع ملموس يظلّ مجرد نصّ شكليّ لا يحقّق المساواة، خاصةً في ما يخصّ الأجور، والعمل، وتوزيع الأدوار داخل الأسرة. كما تبيّن أنَّ التمييز مستمرّ حتى في القطاعات التي حقَّقت فيها النساء حضورًا، ما جعل قضية المساواة أكثر تعقيدًا من مجرّد نيل الحقوق الرئيسة. ففي ستينيات القرن الماضي وسبعينياته، برزت الموجة الثانية للحركة النسوية، فبدأت في الولايات المتحدة، وأسهمت في رفع مستوى الوعي بأشكال الظلم والاستغلال، وأعادت طرح قضايا الأدوار الجندرية، والعمل المنزلي، ورعاية الأطفال. وظهرت «مجموعات الوعي» بوصفها وسيلة لتحويل التجارب الفردية للنساء إلى قضايا جماعية، ما أدّى إلى ظهور تيَّارات نسوية متنوعة، كالنسوية الليبرالية، والماركسية والراديكالية التي تأثّرت بأعمال (سيمون دي بوفوار- Simone de Beauvoir)، ولا سيّما كتابها المرجعي «الجنس الثاني»؛ حيث حلّلت فيه إشكالية الخضوع النسويّ عبر نسق جدليّ هيغليّ يستند إلى علاقة الصراع بين «السيد والعبد»، موضحةً أنَّ الرجل يفرض نفسه بوصفه ذاتًا

فاعلةً، بينما تُختزل المرأة إلى «آخر» تابع. وأشارت إلى أنَّ هذا الوضع لا يقوم على الهيمنة المباشرة فحسب، بل على استبطان المرأة لهذا الدور أيضًا، ما يزيد من تعقيد مسار التحرُّر.[١] [٢]

إشكالية التابع أو الهيمنة الذكورية ليست مجرّد مسألة طبيعية أو بيولوجية خالصة، بل هي بناء اجتماعيّ وثقافيّ تشكّل في تاريخ الإنسان. فالأنوثة والذكورة تُفهمان من خلال الثنائيات المتضاربة والمشكِّلة للذات والتجربة الوجودية، من قَبيل العقل/العاطفة، والعام/الخاص، وهي ثنائيات بنت التصوُّر الدوني للمرأة. ومن هنا جاءت المقولة الشهيرة: «لا تولد المرأة امرأة، بل تصبح كذلك»، في إشارة إلى أنَّ الهُوية الجندرية يتحقَّق بناؤها اجتماعيًّا.[٣]

وأخيرًا، تبرز النسوية في موجتها الثانية، بوصفها نقدًا عميقًا للأنظمة الاجتماعية والاقتصادية، خاصةً الرأسمالية، التي أسهمت في تكريس تبعية المرأة عبر استغلال عملها المنزلي غير المدفوع. كما انتقدت محدودية النسوية الليبرالية، معتبرةً أنَّها عاجزة عن معالجة الجذور العميقة للاضطهاد، ودعت إلى تغييرات بنيوية تشمل الاقتصاد والثقافة معًا.

شهد الفكر النسوي تحوّلاً جوهريًّا من الموجتين الأولى والثانية إلى الموجة الثالثة، حيث تمثّل وجه الاختلاف الرئيس في نقد «المركزية البيضاء»؛ فقد رأت النسويات في الموجة الثالثة أنّ الحركات السابقة حصرت تركيزها في تجربة المرأة البيضاء من الطبقة المتوسّطة، وافترضت بغير قصد أنّها تمثّل النساء جميعهنّ. أدّى هذا التحوّل إلى إدراك أنّ قضية الاضطهاد ليست تجربة موحّدة، بل هي تجربة متعدّدة الأوجه، ما جعل مفهوم الاختلاف المحرّك الرئيس للنظرية المعاصرة، لا سيّما بعد تأثّر هذه الموجة بفكر ما بعد الحداثة، خاصة أعمال (ميشيل فوكو - Michel Foucault) و(جوديث باتلر - Judith Butler)، في تفكيك مفهوم الهُوية الثابتة؛ فلم يعد

1 - Terence Ball and Richard Bellamy, eds: The Cambridge History of Twentieth-Century Political Thought, pp495515-.

2 - Simone de Beauvoir: The Second Sex, trans. Constance Borde and Sheila Malovany-Chevallier.

3 - Simone de Beauvoir: The Second Sex, trans. Constance Borde and Sheila Malovany-Chevallier, p283.

يُنظر إلى المرأة بوصفها موضوعًا صلبًا، بل بوصفها كيانًا يتشكّل عبر ممارسات ثقافية واجتماعية متغيّرة. وقد أطاح هذا الفكر بالثنائيات التقليدية (رجل/امرأة)، معتبرًا الأدوار الجندرية «أداءً» يفرضه المجتمع، لا قدرًا بيولوجيًّا، ما أفسح المجال لسياسات نسوية أكثر مرونة وقدرة على استيعاب الهُويات المتعدّدة. وعلى الصعيد السياسي، ناقش الفكر النسوي في الموجة الثالثة تحدّي خلق حوار ديمقراطي يحترم الاختلاف، دون إضعاف القوّة الجماعية للحركة، وطرح إشكالية التمثيل بطرح سؤال جوهري: هل يمكن لامرأة واحدة أن تتحدّث باسم النساء جميعهنّ؟ وقد خلصت النقاشات إلى ضرورة بناء منصّات تسمح للأصوات المهمّشة بأن تُسمع بوضوح، مع التأكيد على أنّ القوّة الحقيقية تكمن في تحويل الأعراف الاجتماعية وإعادة تقويم المؤسّسات السياسية لتصبح أكثر إنصافًا وتعدّدية. وأخيرًا وليس آخرًا، لا تقتصر مَهمَّة النسوية المعاصرة على تحسين وضع المرأة ضمن النظام القائم فحسب، بل تتعدّاه إلى تفكيك بنية «التبعية» ذاتها، من خلال رفض القوالب الجاهزة والتساؤل المستمرّ عن مقوّمات المجتمعات العادلة.

انطلاقًا من هذا الطرح، يظهر الفكر الأنثوي وجهًا لوجه أمام أزمات الكائن الموجود، في عدّة مستويات: ثقافيًّا، واقتصاديًّا، وسياسيًّا، ولا سيّما في الوضع المعاصر الذي لم تعد فيه الوضعية النسوية كما كانت في موجتيها الأولى والثانية، بل تحوّل الوضع إلى وضع مغاير تمامًا، أفرزته التحوّلات العالمية الاقتصادية والسياسية داخل المجتمعات، حيث أصبح العالم أكثر خطرًا؛ لأنّه أصبح غير متساوٍ أكثر فأكثر. تدلّ العبارة على أنّ المساواة هي قضية عالمية وليست قضية نوع؛ فكلّما ازداد الغنى في البلدان الأكثر ازدهارًا ازداد الفقر في البلدان الأقلّ تنمية، ومنه فالقضية الحقيقية هي قضية العدالة التي تتكافأ فيها الأقلّيات، أي الدول الغنية، والأكثرية الفقيرة التي تمثّل دول العالم الثالث. لذلك تقول (كاترين أودار - Cathrin Audard): إنَّ الخطر الموجود في العالم اليوم هو أنّ اللا مساواة تفوق التصوّر، فالعيش معًا أصبح غير محتمل، فلا مجال لِأَنْ نقارن بين الولايات المتحدة الأمريكية والصومال. انطلاقًا من هذا، تبدو الفوارق أكثر وضوحًا، بل وأكثر خطرًا؛ لأنّ اللا مساواة تُعدّ تهديدًا للسلامة العالمية.[١]

١ - كاترين أودار: ما الليبرالية؟ الأخلاق، السياسة، المجتمع، ص٤٨٠.

تتمتّع مختلف دول العالم بخصوصية تاريخية واقتصادية وسياسية، وهي خصوصية تعني أنَّ نقطة الانطلاق ليست موحّدة، والخيارات المتاحة وجوديًّا ليست نفسها، خاصّة عند النظر إلى الدول التي خضعت للاستعمار وشهدت تراجعًا في سيادتها، ما يجعلها بعيدة عن المساواة مع مختلف الدول العظمى. فلم تجد هذه الدول من سبيل لدخول التاريخ إلا عبر المقاومة وطلب المساعدة الدَّولية، ورغم تخلّصها ظاهريًّا من فكرة المستعمِر والمستعمَر، لكنَّ الفكرة لا تموت، بل تطلّ برأسها مجدّدًا في قوالب وأشكال تذكّر الشعوب دائمًا بماضيها. وليس بالغريب أن يعود المَنسي في التاريخ في قوالب وأشكال مختلفة، لقد ذهب الاستعمار، وحلّ محلّه التابع الذي يُوجَّه دائمًا من طرف المستقلّ من العرق الأبيض.

بناءً على ذلك، تُعدّ فكرة المساواة بين البشر كمن يحلم برقصة الشعوب جميعها فوق كفّة واحدة لميزان العدالة، فهذه الفكرة تحمل معضلة كبيرة؛ فعندما نتناول هذا الركن داخل نظرية العدالة فنحن نقرّ ضمنًا بواقع اللا مساواة، كما وضّح ذلك (عبد الله الغدامي)، فأنْ ندعو إلى جعل النساء والرجال متساويين يحوّل مَطمح تأنيث الثقافة إلى واقع يحاول تذكير المؤنَّث، وتأنيث المذكَّر، وبالتالي نلغي الهُوية «الطبيعية» وخصوصيات النوع؛ لأنّنا نقرّ في النهاية بنوع من إلغاء التأنيث، ومنه فنحن نعيد إنتاج الهيمنة نفسها بصيغ أخرى لم تغيّر في النسق شيئًا، إنّنا هنا أمام وضع جديد ننكر فيه الأصل ونخرّبه بإعادة إنتاج الهيمنة نفسها والسلطوية، الوضع الذي يجعلنا نتساءل: هل المساواة هي النسخ المتشابهة أم المختلفة؟ وهل العالم نموذج واحد أم نماذج متعدِّدة؟ هل استطاع الفكر النسوي أن يخلق نسقًا خاصًّا ومتفرّدًا، أم أنّه ظلّ تابعًا لنسق مهيمن؟[١] [٢]

ثانيًا: الأنوثة في عصر الاستهلاك

إنّنا نعيش، ولكن كيف نعيش؟ يجعلنا هذا السؤال نفكّر في ذواتنا والعالم الذي نسكنه وننتمي إليه، فسؤال العيش لم يكن سؤالاً عاديًّا في تاريخ الإنسان، فمنذ اليونان اعتُبر سؤال العيش مسألة

1 - Judith Butler: Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity.

٢ - عبد الله الغدامي: الليبرالية الجديدة: أسئلة في الحرية والتفاوضية الثقافية، ص٧٦.

حيــاة أو موت، تجعل الأفــق الخُلُقي المعياري هدفًا لكل حياة جديــرة بأن تُعاش، فبين التمنّي والواقع، والاستســلام والعصيان، والكمال والنقص، ثنائيات تحكم الوجود، وتجعل الموجود يبحث عن المعنى وسط التناقض الذي تحمله الأرض التي نحيا فيها. تحدّث (زيغمونت باومان- Zygmunt Bauman) في كتابه «الحياة السائلة» عن أنَّ العيش في عالم اليوم هو عيش في السرعة وعدم الاســتقرار؛ لأنَّ حياة المجتمع الحديث لم تعد تحتفظ بالمَعالم نفسها، وبالتالي فالذات التي تعيش هي نفسها تتغيّر بتغيّر معالم العالم الجديد في مختلف المجالات، وخاصّة المجال السياسي والاقتصادي.[١]

فأن يحيا المرء ويعيش في مجتمعات اليوم وجب عليه أن يذوب في التغيّر والتلاشي اليومي، الذي تفرضه طبيعة الحياة الســائلة، إننا بوصفنا منتجاتٍ لا يجب أن نحتفظ بسمات وخصائص أبدية؛ لأن الســيولة كمدّ جارف تتجدّد باســتمرار، وبانعدام السيلان سيغدو الفرد كمنتج منتهي الصلاحية، بســبب الاعتقاد في الصلابة، فلقد تحوّل الكل إلى عملات، لا يتحكّم فيهم الشوق إلى المفارق، بل إلى القوة العالمية التي تقبض على شرايين العالم وتوجّهه.

يُعَــدّ التفكــير في رغبة موضوعية وواقعية أمرًا شــبيهًا بالحلم في المجتمعات الاســتهلاكية؛ فالكائــن الراغب في الفــترة المعاصرة مرتبط بمحرّك اقتصادي دائم الفعــل تجاه ميول ورغبات مســتمرّة بلا نهاية، وقابلة للتجديد والتحسين. إنّنا، حســب (زيغمونت باومان)، كائنات تعاني الجوع وعدم الإشباع؛ فكلّما كان الجوع أكبر تحرّك الاقتصاد والاستهلاك أكثر، لكن ما نلاحظه أنّ الدعاية أصبحت تلعــب دورًا كبيرًا في هذا الأمر، فلم تعد الرغبة أو الحاجة كلتاهما تتطلّبان إشباعًا موضوعيًا ومفكّرًا فيه، بل أصبحت الرغبات والحاجات كلّها إدمانًا في البحث عن المحال والمفقود، لتغطية النقص الحاصل في ما نتمنَّاه، ونحلم به، ونرغب فيه. وبهذا يكون الجوع مرض العصر في المجتمعات الاستهلاكية؛ فالرغبة في مظهر جذَّاب، وبشرة جميلة، وأكل لذيذ، ومنزل فاخر[...] هي رغبات نَعِدُ بها أنفســنا، وهــي تُعَدّ رغبات مشروعة وعقلانية، لكن من الملاحظ في مجتمع ما بعد الحداثة أنّ عقلنة الرغبة وتحقيق الإشــباع لمختلف الرغبات أشبه بحلم؛ فما

١ - زيغمونت باومان: الحياة السائلة.، ص٣٣.

من شــهوة غير مصحوبة بوعــي ذاتها إلا وكانت في غليان مســتمرّ دون انقطاع، تتغذّى بالنفاق الاعتقادي الذي يجري تمريره في الحياة التي يعيشــها المســتهلكون. فوعــد المظهر الجذَّاب يتغذّى بخداع المســتهلِك بموضة معيّنة، ومن يخرج عنها يصف نفسه بأنّه شخص غير مقبول، ومنفي، ولا يواكب مظهر العصر، ولا يخدم لغة الأرقام الاســتهلاكية. يعبرّ عن ذلك (زيغمونت باومــان) بالقول: «إنَّ عالم الاقتصاد يقدّم وعودًا، بيد أنَّ الوعود كلّها لا بدّ أن تتّســم بالخداع أو المبالغة على أقلّ تقدير إذا كان لطلب الأشياء أن يدوم».[١]

يُعَدّ المجتمع الاســتهلاكي، دائم اللذّة المستمدّة من السوق، يعظّم ملذّات السوق/التسوّق، وهذا الاســتهلاك غير مفصول عن شرايين الحياة؛ فالاقتصاد والسياســة والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد عبارة عن متلازمة اســتهلاكية تســيطر على الحياة العامّة. هــذه المتلازمة المتمركزة حول الاستهلاك أعلت من شأن الزوال، وقصّرت المدّة الزمنية بين الحاجة وإشباعها، فأصبحت حاجات الإنسان ورغباته وأمنياته تظهر بسرعة كبيرة، وتموت بسرعة أكبر؛ فالعمر القصير عنوان لكلّ شيء: كلّ رغبة، وكلّ أمنية في الزمن الحديث. فبُنى الزمن السائل تحاول ترويض الأشخاص قدر المستطاع، وتعليمهم الفرح بالتخلّص من الأشياء المنتهية الصلاحية؛ فالرغبة بالكمال هي الأرضية التي يتغذّى بها الاقتصاد والمجتمع الاستهلاكي.[٢]

انطلاقًــا من هذا، يظهــر أنَّ لا صوت فوق صوت الســوق والربح، فهو واقعــة متعيّنة تحتاج إلى تحليل عميق، ســنضع فيه العــين على الكيفية التي يجري بها توجيه عالم النســاء إلى عالم الاســتهلاك وخدمة السوق، وسنفتّت المسكوت عنه في عالم الأنوثة، وذلك بالتفكير مع (جيل ليبوفتسكي-Gilles Lipovetsky) في وضع النساء في عالم اليوم.

يحلّل (جيل ليبوفتســكي) ظاهرة الموضة التي شــهدت عبر التاريخ تطــوّرًا كبيرًا، حيث لم يعد اللباس حكرًا على طبقة اجتماعية دون غيرها، كما أصبحت فكرة اللباس الجميل غاية متغيّرة تخضع لتقلّبات عالم الموضة. يوضّح (جيل ليبوفتسكي) أنّ أي تصميم يحظى بالإعجاب، وإن كان زواله

١ - زيغمونت باومان: الحياة السائلة، ص١٣.
٢ - زيغمونت باومان: الحياة السائلة، ص١١٦.

حتميًّا، فقاعدة الزوال هي التي تحكم إنتاج الأشـياء واستهلاكها بفعل البرمجة الاقتصادية للسوق العالمية؛ إذ يظلّ ما هو جديد كلّه مغريًا وجذّابًا، بينما يفقد القديم بريقه سريعًا أمام المدّ المتسارع لحركة الاسـتهلاك المعاصر. إنّ الطلب المتزايد من المُستهلكين يُبقي عجلة الإنتاج الصناعي في حالة ديمومة غير نهائية، ما يجعل «الجديد يُتوَّج كملك». وهذه العملية ليست نتاج أسباب طبيعية عفوية، بل هـي منظومة مركّبة تلعب فيها الدعاية والإعلانات ووسـائل التواصل الاجتماعي دورًا محوريًّا في توجيه الاقتصاد الذي يسير، وفق تعبير (زيغمونت باومان)، بمنطق الإجبار والغواية.[١] [٢]

لم تعد علاقتنا بالأشـياء علاقة اسـتخدام طبيعية، بل تحوّلت إلى ما يشبه اللعبة القائمة على التلاعب والأداء، فقد أصبح المسـتهلك وفيًّا للموضة ومتأقلـمًا مع نمط الحياة الجديد، حيث جعل الجوع والرغبة المفرطة في الاستهلاك مفهوم الطبقية سرابًا، ويُعزى إلى أن المصنع يصنع لكل طبقةٍ أحلامها وأوهامها، سـواء في الملابس أو الحلي أو مساحيق التجميل وما إلى ذلك. هذا الأخير يتغذّى بالطلب المتزايد وأوهام الحالمين الذين فُتنوا بسرعة العصر وأغرموا بها. وكما يرى (جيل ليبوفتسـكي)، فإنّ الملابس الراقية التي كان يرتديها الأغنياء وذوو النفوذ تحت اسم «الماركة المسـجّلة» باتت من سمات الماضي؛ فقد نجح هذا المَعبد، في ظلّ إغراء النفعية، في ابتـكار ما يُعرف بالملابس الجاهزة ليحقّق أحلام الطبقـات جميعها التي تواكب روح الحضارة المعاصرة. لا ينسـاق الفرد وراء غواية الموضة سـعيًا للتميّز الاجتماعي فحسـب، بل رغبةً في الاعتراف به بوصفه فردًا ذا قيمة يثير الإعجاب والدهشة، فضلاً عن رغبته في الحفاظ على مظهر الشباب الدائم. لقد تجاوزت الموضة كونها حكرًا على النساء، فقد تبنّاها الرجال أيضًا، فالعصر الذي يكرّس العناية بالجسـد والمظهر للجنسـين بات واقعًا ملموسًـا، متأثّرًا بما يمكن تسميته بـ«الديمقراطية النرجسية» الناتجة عن هوس الشباب الدائم.[٣]

يشـكّل ترف الموضة ظاهرة اقتصادية واجتماعية متشـعّبة جدًّا، فهو مرتبط بالمكانة والنوع، وهو ظاهرة معمّمة على الجنسـين كليهما، لكن (جيل ليبوفتسـكي)، من خلال تحليله، يجعل

١ - جيل ليبوفتسكي: مملكة الموضة: زوال متجدد، الموضة ومصيرها في المجتمعات الغربية، ص١٤٠.
٢ - جيل ليبوفتسكي: مملكة الموضة: زوال متجدد، الموضة ومصيرها في المجتمعات الغربية، ص١٦٤.
٣ - جيل ليبوفتسكي: مملكة الموضة: زوال متجدد، الموضة ومصيرها في المجتمعات الغربية، ص١٢٤.

الترف بوصفه مجالاً أكثر توافقًا مع المؤنّث منه مع المذكّر، الشيء الذي يجعلنا نسأل عن الطرق والكيفية التي بُني بها هذا الاختلاف الجنسي في مسألة الترف في النظم الاجتماعية. صحيح أنّ عالم الرجال يحكمه ذوق خاصّ، كالرغبة في سيارة، أو بيت، أو يخت، أو طائرة، لكن السلع الفخمة تنتمي إلى عالم النساء أكثر من الرجال، الشيء الذي يجعلهنّ مهيمنات على السوق من خلال كونهنّ مستهلكات أكثر من الرجال. هذه الظاهرة الحديثة، حسب (جيل ليبوفتسكي)، نسبية واستثنائية في التاريخ، تجعل الترف ظاهرة مؤنّثة، انطلقت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بالرغم من أنّ الترف بُني من جانب الرجال بدعوى التفوّق والجود. وليست ظاهرة الموضة والانهمام بالمظهر إلا ظاهرة تخصّ النوعين معًا، لكن ما سيجعل الظاهرة تؤنّث هو الاستهلاك المتزايد الذي يجعل المرأة ذات إقبال وترحيب بالتغيّر والتنوّع أكثر من الرجل. ولعلّ الصورة التي يرسمها المشهد قديمًا خلال القرن السابع عشر هي ما صرّح به (جروناي) أنّ «الموضة إلهة وليست إلهًا». يعدّ هذا التصريح دليلاً على أنّ ظاهرة الموضة لم يعد يتشارك فيها الجنسان بقدر متساوٍ ومعتدل، تعبيراً عن الذوق الخاصّ بكلٍّ منهما بإبراز جمالية الجسد المنتمي إلى روح ثقافة معيّنة، وزمن خاصّ ومميّز. لكن الطفرة ستقع، كما يعبّر عنها (جيل ليبوفتسكي)، بالانعكاس الكبير المرتبط تاريخيًّا بالقرن الثامن عشر، حيث أصبح يُلاحظ أنّ خزانات ملابس النساء بلغت ضعف خزانات الرجال، وبما أنّها كذلك، فالشراء والاستهلاك في ما يخصّ اللباس جعلا الظاهرة تؤنّث من خلال قراءة للمسار التاريخي الذي سيجعل من القرن التاسع عشر عصر التفوّق النسوي في مجال المظهر والموضة والترَف. فكلّما ظهرت صنعة تخصّ الأزياء فهي موجّهة إلى النساء أكثر، لكن من غرابة الظاهرة، وبما أنّنا قلنا عنها إنّها إلهة وليست إلهًا، ستجعل النساء في انجراف تام نحو الزائل، والنفقة على الكماليات، بيد أنّ ظاهرة الموضة لا تخلو من تعقيد؛ لأنّ المرأة واجهة لثروة الزوج والعشيق والأب، الشيء الذي سيجعلنا نتساءل: هل للرجل دور في الظاهرة الاستهلاكية النسوية؟[١] [٢]

١ - جيل ليبوفتسكي: الترف الخالد: من عصر المقدس إلى زمن الماركات، ص٧١.
٢ - جيل ليبوفتسكي: الترف الخالد: من عصر المقدس إلى زمن الماركات، ص٧٥.

ثالثًا: الأنثى المفقودة في اللغة والثقافة

يكتب المفكّر (فتحي المسكيني) عن القضية الجندرية التي لا يمكن التفكير فيها دون منحها دلالة أنطولوجية مستمدّة من ثلاثية السلطة التي توارثناها (الأب، الملك، الإله)، أو كما وسمها بالنحو المذكّر؛ فيتشكّل المعنى عن الذات والعالم دون انفصال عن قواعد توزيع استعارات الذكورة والأنوثة على الموجودات بوصفها مصنوعات. انطلاقًا من هذا النحو يجري تأسيس قضايانا الوجودية وإدراكها بقواعده، دون الانفلات من قبضته وسلطته المعيارية، وبه يجري تشكيل تجربة الموجود بكل عوارضها سيراً على خطى النحو المذكّر، سواء كان ذلك بطريقة واعية ومفكَّرٍ فيها أم بطريقة غير واعية ولا مفكَّرٍ فيها.[١]

إنَّنا، حسب هذا الطرح، ما زلنا نذكّر أنفسنا بأصلنا النحوي، الذي لا يُنسى ولا يُمحى. إنَّه، بلغة (جاك دريدا - Jacques Derrida)، «سيمولاكر» متجدِّد بلا انقطاع؛ لذلك يفصح (المسكيني) عن وجوب مراجعة المعطى الأنطولوجي المبكِّر. من خلال هذه المراجعة يمكننا إعادة النظر في هذا المعطى بوصفه استعارةً عرضيةً دون شروط؛ لأنَّها تفتقد إلى الشرط الذي يجعلها تتحوَّل من استعارةٍ عرضيةٍ ميتة، جعلها التاريخ تتحوَّل إلى معطى أنطولوجيٍّ له دلالة، نُقِلَ فيها العرضيُّ إلى جوهرٍ والميتُ إلى حيٍّ، ويمكن توضيح ذلك من خلال الآتي:

١. الأب مجرّد استعارة نحوية

٢. الملك إشارة نحوية إلى ذَكَرٍ بيولوجيٍّ تحوَّل إلى نموذج معياري للسلطة غير قابل للتأنيث

٣. الإله استعارة نحوية تحوَّلت مع الاستعمال إلى جوهر مستقلّ عند المتكلِّمين، يتأسَّس وجوده على التعالي.

إنَّ الأشكال الثلاثة: الأبوّة، والألوهة، والملك، هي أشكال من التعالي؛ يجري فيها القفز عن الأصل الأول بإعطاء المتعالي سلطة دلالية وتاريخية: الأب الذي يُعَدُّ الرمزَ المتعاليَ في العائلة، والملك باعتباره الرمز السياسي، والإله باعتباره الرمز الديني.

---

١ - فتحي المسكيني: الجندر الحزين، ص٧.

يحاول (المسـكيني) مساءلة وضع وجودي قائم بذاته، هو وضع التحوُّل من الدلالة الطبيعية التي تشـمل الموجودات كلَّهـا، ويلتفُّ الموجود حول خصائصه الكونيـة دون حمولة المعنى والأداة، إلى الدلالة الثقافية التي يُعَدُّ فيها الموجود صانعًا حوَّل وضعه بفعل الصنعة. لقد نقل فعل وجوديَّته إلى الأخلاق، والسياسة، والدين، وأعطاها المعنى، ومن ثَمَّ تحوَّلت الاستعارة النحوية الحيوانيـة غير القصدية إلى النقيض تمامًا بفعـل الصنعة. لقد تحوَّل النحو الخالي من الغرض، من لغة وجود بريئة من كل غاية وتوجيه، إلى نحو له قواعد باعتباره نموذجًا للبشر ونتيجة حتمية للمسـبِّبات الطبيعية، بيد أنَّ الوضع النحوي للكائن الحي جدُّ معقَّد ويحتاج إلى تأويلية خاصة وفحص الوضوح النحوي للبشر نتيجة الصنعة في الأخلاق، والسياسة، والملَّة.[١]

يحاول (المسكيني) استشـكال الوضع الوجودي للكائن المسـكون باللغة، فهي تتعدّى أن تكون نسقًا من العلامات والرموز والكلمات، بل هي الوجود بأسره على نحو موضوعي ومفكّر فيه، كما تفطّن إلى ذلك (مارتن هايدغر-Martin Heidegger)، باعتبار اللغة مسـكن الوجود، فاللغة تسكننا، وهي قطب الرحى عن معنى الكائن المسكون بمختلف الأشياء؛ إنّه يعبرّ بها عنه، ويفكّر بها، والتحدّيدات والتشـخّصات الوجودية كلّها هي نتاج فعل اللغة التي نتكلّمها سرًّا أو جهرًا عن ذواتنا أو عن الآخر، فما معنى أن يستشكل موضوع النساء في نحو لغوي؟

يظهر المشكل اللغوي عندما نحاول الحفر في عمق تشكّل الخطاب، الذي لا يخلو من جنوسة لغته، فلغة الضاد نذكّر فيها في مواقع كثيرة ولا نؤنّث، فهذه اللغة حسمت أمرها نحويًّا في ما يتعلّق بمعنى الفرق بين الجنسـين، فلا تكون الأنثى أنثى صرفة نحويًّا؛ في المقابل، لا يمكن تأنيث الذكور نحويًّا. إنّنا إزاء قلق لغوي لا يسعف لبناء لغة محايدة وموضوعية بخصوص المؤنّث والمذكّر، إنّه قلق يتّخذ وجه سلطة خطابية نتكلّمها، ولا تعبرّ عن هوية الأنثى على نحو سـليم، إنّها الهو هو وليست الهي هي، تظهر اللغة مسـلوبة الحُرّية للتخلّص من مخاوفها وقلقها، أم أنّ هذا الظهور بنية تاريخية موجّهة بسـلطة المقدّس جعلت قواعدها وجوهرها مبنيّين بما يتوافق مع معيارية وخصوصية الثقافة حول دلالة الأنثى في اللغة.[٢]

١ - فريدريك نيتشه: أفول الأصنام، ص٣٠.
٢ - فتحي المسكيني: الجندر الحزين، ص٦٢.

يؤسّس فقهاء اللغة تأويلات خُلُقية للنســاء والرجال، تُقدَّم على أنّها طبائع لغوية مخصوصة لكلّ نوع، فلســان العــرب لـ(ابن منظور) يُعرّف فيــه الأنثى بأنّها خلاف الذكــر، والذكر خلاف الأنثى، أمّا بقية التعريفات، فيرى فيها (المســكيني) أنّها حمّالة لأحكام خُلُقية مربكة في التذكير والتأنيث، بل تتعدّى ذلك باعتبار المسألة التعريفية في لسان العرب مهدّدة لهوية الأنثى وتؤسّس لسلطة ذكورية ســعى إلى ترسـيخها علماء اللغة بتحديد المعنى التأويلي لدلالة المرأة؛ إذ جاء في لســان العرب: «وزعم ابن الأعرابي أنّ المرأة إنّما سُــمّيت أنثى من البلد الأنيث؛ لأنّ المرأة ألين من الرجل، وسُــمّيت امرأةً للينها»، كما أنّ العرب تؤنّث العطور وتذكّرها حســب التصنيف الهُوِيّ للجنسين، وليس حسب خصائصها واستعمالاتها. كما نذكر أنّ اللغة حمّالة للبس لغوي لكلمتي المرأة والنســاء، فهذه الأخيرة جمعٌ لامرأة من غير لفظها، والمرأة هي مؤنّث امرئ، فلا نســاء من دون امرأة أو امرأتين، ولا امرأة من دون امرئ، الشيء الذي يمكن أن نســتخلص منه الهشاشة الاصطلاحية، فتسمية النساء هي قرار لغوي خطير نابع من سياسة هُوِيّة واعية لم يفهمها إلا النحاة؛ لذلك اضطرّوا إلى تبريرها بالحيل الاصطلاحية المتاحة.[١] [٢]

إنّنا أمام بحث متشــابك عن النساء، لا باعتبارهنّ حقوقيّات، بل بوصفهنّ نوعًا اجتماعيًّا، ثمّ بناؤه ثقافيًّا في التاريخ والقانون والاقتصاد والأخلاق واللغة، تحاول فيه نون النســوة فكّ لغزهنّ المحــيّر بأن يكنّ في قلب الخلق الثقافي، وفاعلات في التاريخ وليســت منفعلات، فجلّ ما هو ثقــافي يولد بفعل الصراع، تصــارع المرأة من أجل الفعل لا الانفعــال في عملية الإنتاج الثقافي التي كانت من بنات الفكر المذكّر، فالشعر والفنّ والموسيقى والفلسفة والرياضيات وغيرها من الحقول الثقافية كانت إبداعًا خاصًّا بالرجال، وليس للنســاء. أمام هذا الاعتراف المبدئي بتذكير الإبداع الثقافي، أين النساء في عملية الإنتاج الثقافي؟

أمام هذا الســؤال المعبِّر عن موقع المرأة في عملية الإنتاج الثقافي، ســتحاول النساء مساءلة هذا الغياب الإبداعي الذي جرت أدلجته بفكرة المنع تحت ظلّ سلطة الرجل. تظهر الحُجَّة غير

١ - فتحي المسكيني: الجندر الحزين، ص٦٣.
٢ - فتحي المسكيني: الجندر الحزين، ص٦٨.

مقنعة تاريخيًّا؛ فالمنع، بوصفه فعـلاً يحرم الذات من حُرّيتها، يظهر أنّه لازم كلّ من يبدع، ليس من نوع الرجال أو النسـاء، بل الفكرة الإبداعية التـي وُوجهت على مرِّ التاريخ بالمنع، والقمع، والقتـل، والمراقبة، والتوجيـه. فلقد تعرَّض أغلب المبدعين للاضطهـاد من طرف رجال الدين أو الدولة. لقد جرت العادة على رفض الحقيقة في لباسـها الجديد، فالفكرة المبنية على أُسُـس علميـة تغيِّر مـدارك الناس وعوالمهم. لذلـك فالحقائق وقائلوها لا تنفكُّ عـن أن تكون مراقبة وموجَّهة من طرف رجال السلطة. ولنا في ذلك عدَّة نماذج؛ منها التضييق على الفكر. ألم يُحاكم (سقراط) أمام المحكمة الأثينية في مشـهد مأساوي مُنعت فيه الحكمة السقراطية في المجتمع الأثيني، كما جرى توضيح ذلك في محاورة الدفاع؟ كما نجد تآمر محاكم السـنهدرين اليهودية على المسيح (المسيح)، وإدانة (جاليليو جاليلي - Galileo Galilei) من طرف محاكم التفتيش، والحذر الفلسفي الإجباري عند (باسكال - Pascal) و(سبينوزا - Spinoza)، ومحاكمة (فلوبير - Flaubert) بسبب روايته «السيدة بولفاري». هكذا تتشكَّل الذات الواعية بذاتها وبالعالم، فالفكرة دائمًا تُبنى في جوٍّ من التضييق على حاملها، ومنه فالمنع يلازم النساء والرجال على حدٍّ سواء، فلم يكن البناء ممكنًا للتجربة الوجودية دون هدم وإعادة بناء يتغيَّى فيه المتأمِّل، والمفكِّر، والمبدع، بناءً جديدًا يجري فيه الفصل بين عالم المعقولات وعالم اللا معقول.[1]

رابعًا: الأنوثة وسؤال المسؤولية تجاه المطلق والعالم

تحـاول المرأة الصراخ في وجه مصيرها لعلَّها تحظـى بالمكانة التي اختارتها بوعي وقصدية، وهذا ما يمكن وسمه بتأنيث الثقافة في المجال العام. وبما أنَّ الصراخ عنوان للإنسان، فإنَّه يصرخ بكلِّ مـا أوتي من قوَّة في وجـه مصيره وقدره، الذي يسـلب منه الحُرّية ويخضعـه لا لحتميات وضرورات طبيعية، بل الإخضاع هنا هو التحويل الشـامل لمعالم الإنسان والعالم بفعل الثقافة. لذلك فالأنثى، بوصفها كائنًا منفعلاً بالثقافة ومآلاتها، بلغة الإيجاب والسـلب معًا، ليسـت كائنًا معزولاً عن العالم المعيش، بل توجد في قلب الجزئيات الثقافية، سياسيًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا.

١ - البشير عصام المراكشي: جناية النسوية على المرأة والمجتمع، ص١٠١.

فكلُّ تواطؤ أو مقاومة هو تعبير عن قلق وجودي، رافق المكسب الثقافي والعيش وفق شروطه. فلقد كان الإنسان حالماً جدًّا في تغيير نحو العالم باسم ملكة العقل، فحقَّق مكاسب كبيرة وخسائر جمَّة. ففي الأولى، بلا شكّ، استطاع أن يؤسِّس دولة الحقِّ والقانون باعتبارها حارسًا تنظيميًّا يضمن للجميع حقوقهم على قدر المساواة بين البشر، أمَّا الثانية فكان مبدعًا في أن ينتج الاعتباطية واللا معنى. وهو ما سنحاول وضع العين عليه من خلال تحرِّي الطرح المظلم الذي كان فيه الإنسان عدوَّ إنسانيَّته وكرامته، لا من زاوية عالم النساء فقط، بل من زاوية أنَّ الأزمات التي لحقت الإنسان في الزمن المعاصر تخصُّ عالم الرجال أيضًا، بوصفه عالماً مشتركًا نعيش فيه سويًّا.

«تحوّل الإنسان في الفكر المعاصر من مشيّد للحضارات ومبدع للثقافات، من سليل بروميثيوس إلى مجرّد نسخة جديدة من سيزيف»[١]؛ حيث تطلّع بفعل ملكة العقل إلى عالم تسمه تطلّعات وطموح كبير في المزيد من المعرفة، وبالتالي المزيد من التحرّر الناتج عن سيطرة النزعة العلمية من جهة، ومن جهة ثانية، ناتج عن ضرورة ملحّة في التحرّر من الأوهام الإنسانية جميعها، بما فيها الأوهام التي يخلقها العلم ذاته، أو أوهام الإنسان، أي الإنسان الفاعل المسؤول المبدع، وهو يرفض في هذا الأفق المشاريع والغايات والأهداف جميعها التي يعطيها البشر لحياتهم[٢]. إنّه الكائن الذي نقشت عليه نقوش الثقافة بالانفعال، وباعتبار الجندر موضوعنا الأساس، فالجسد لم يسلم من تغيّرات السيولة وانهيار السرديات الكبرى؛ فهو، حسب تعبير (جوديث باتلر - Judith Butler) في كتابها الموسوم بقلق الجندر: النسوية وتخريب الهوية، مصاغٌ بواسطة القوى السياسية التي لها مصالح استراتيجية في ترك ذلك الجسد مقيّدًا بواسطة علامات[٣]. العلامة التي انتقل فيها الخطاب، كما الجسد، من مشروع تحرّري يسعى إلى العدالة والمساواة، باعتبار العصيان مسؤولية، كما فسّرها (فريديريك غرو- Frédéric Gros)، ليس باعتبار أنّ العاصي يواجه المسؤولية بالرفض، أو هو الشخص الذي لا يحترم القانون. هذا كلام لا معنى له حسب (غرو)، ويعتبر فضفاضًا؛ لأنّ (غرو) يضع القارئ أمام سؤال محرج: تصوّر إذا

١ - عبد الرزاق الدواي: موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، ص١٦.
٢ - عبد الرزاق الدواي: موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، ص١٧.
٣ - جوديث بتلر: قلق الجندر: النسوية وتخريب الهوية، ص٢٧٩.

فعل الناس كلّهم مثلك، ففي أي عالم سنعيش؟[١] بمعنى: إذا كان الكلّ مطيعًا، فما العالم الذي سنشكّله بطاعتنا التامّة، باعتبار الطاعة هي المسؤولية الوحيدة للفرد؟ هنا ظهرت مسؤولية النساء الحقيقية في مجابهة للسلطة، وليس باعتبار الرجل ندًّا أو بوصفه موضوعًا قابلاً لتحويل المؤنَّث إلى المذكَّر أو المذكَّر إلى المؤنَّث، وهو ما سنفسّره في الفقرات اللاحقة تفسيراً للمسؤولية تجاه المطلق أو المسؤولية تجاه العالم القائمة على الواجب الخُلُقي، إلى خطاب تابع لمنطق السوق والاستهلاك، باعتبارهما المنطق المهيمن على قيم المجتمعات المعاصرة، حيث تزداد حدّة هذا الخطاب بهيمنة الإعلام الرقمي وثقافة الصورة التي تُقدَّم فيها الأنوثة باعتبارها قيمة جمالية وتسويقية أكثر من كونها قيمة خُلُقية وهُوية إنسانية.

هل الأنوثة بحاجة إلى المطلق؟ بهذا السؤال فنحن نجابه الهشاشة التي وصل إليها الإنسان في الزمن المعاصر ومآلها نتيجة التخلّي عن المطلق، وهذا ما وُسِم في تاريخ الأفكار الفلسفية بموت الإله وغيابه في حياة الفرد المعاصرة، وليس الغياب هنا إلا حضوراً في حضرة أشياء غير المطلق، وذوبانًا في كل صنعة من صناعات زمن السيولة وعوارضها، خاصّة التقنية التي جعلت المؤنّث يحضر حضوراً مستلبًا في الشاشة، فوسائل الإبداع التقني كلّها تجعل الأنوثة كائنًا موجودًا فعلاً ويجري الاعتراف به، بيد أنّ ما يشدّنا في هذه القضية هو ما فكّر فيه (مارتن هايدغر) عندما ناقش فكرة مفادها أنّ مَهمَّة التفكير هي مساعدة الإنسان على التبصّر، وهذا معناه أنّ الكائن تتحقّق كينونته بالفهم، والتدبّر، والحذر من مشاكل التقنية أو الدولة العمياء التي تعاني الذلّ والعماء أمام سلطان التقنية[٢]، وبالتالي فنحن أمام وضع مربك ولا يخلو من الخطر؛ لأنّ الأنوثة تماهت مع الجماليّة التسويقيّة والعالم الرقمي، حيث تتحوّل الهُوية الإنسانيّة إلى صور تتحرّك بلا نهاية، والقيمة تختزل في عدد الإعجابات والتعليقات، كما أنّ الاستلاب يظهر في الذوبان في الإشهارات والإعلام غير المتّزن والخالي من الرسائل الخُلُقيّة والقيميّة كلّها، وتتحوّل الأنثى إلى موضوع مقلق ومربك أمام سلطة العالم الرقمي الذي يجعل كل أنثى تدخل في صراع المعيار. ما

١ - فريدريك غرو: العصيان: من التبعية إلى التمرد، ص٢٠٣.

٢ - مارتن هايدغر: وحده الله بإمكانه أن يمنحنا النجاة، حوار أجرته مجلة دير شبيغل مع مارتن هايدغر، ص٤٣٣.

مقياس أن تكون الأنثى هي هي في الأزمنة ما بعد الحداثيّة؟ إنّها الأنثى الناجحة، والجميلة التي تتحرّك بتحرّك سرعة العرض والطلب، ومنه فالسوق بآليّاته المختلفة احتوى الخطاب النسوي وحوّله إلى وسيلة ربح.

في استعادة لأفكار (فريديريك غرو)، يظهر الإنسان طفلاً هشًّا وسريع العطب[١]، ويعيش في الخطر واللا تبصّر، لكن أمام هذا الوضع هل يوجد من ينقذ؟ خاصّة عندما تطرح فلسفة الدين مسألة في غاية الدهشة أمام حضرة الديني، كما وسمها (هولدرلين - Hölderlin): «الافتقاد إلى الله»، والإحساس بالمسؤولية أمام عقل مدبّر كبير يتجاوزني ويسمو عليّ بتفوّقه وعظمته؛ المسؤولية التي تعني أنّ الكائن الذي يفترسه القلق مجبر على أن يدعو تحت عين الله[٢] ويجابه الهشاشة والقلق، برفع القوّة والتفوّق نحو مسؤولية غير محدودة تجاه المطلق، والآخر، والعالم؛ لأنّ كلّ فرد قد زرع في داخله نوعًا من المسؤولية الشاملة تجاه الأرض التي نحيا فيها، خاصّة عندما نجابه مسألة في غاية الصعوبة، تفاعلاً مع دراسات الجندر التي أحدثت تحوّلاً شاملاً في التأويليّة الدينيّة، والخُلُقيّة، والسياسيّة، وفرضت تساؤلات لم تكن موجودة في مختلف الثقافات، فلم يعد الجندر مجرّد مفهوم وصفي للأدوار، بل بات أداة تفكيك فعّالة تكشف آليّة بناء المجتمعات لهويّاتها وسلوكها الجنسي وفق صياغات ثقافيّة، وهو ما أفضى إلى ظهور ما يُعرَف باللاهوت المثلي ونظريّة الكوير (Queer)[٣]، وهي الأعطاب الجديدة التي لحقت المجتمعات الحديثة، وتفرض تجديدًا للمسألة الدينيّة وإعادة النظر في الأعطاب التي يمكن أن تنتج نتيجة التخلّي عن هذا النوع من المسؤولية الذي يربط الذات بالعالم وبالقوّة المدبّرة.

١ - فريدريك غرو: العصيان: من التبعية إلى التمرد، ص٢٠٦.
٢ - فريدريك غرو: العصيان: من التبعية إلى التمرد، ص٢٠٧.
٣ - فتحي المسكيني: الجندر الحزين، ص٧٣

خاتمة

تبدو حاجتنا اليوم، ونحن نفكّر في هذا الموضوع الشـائك والمتشـعّب، إلى فهم الأنوثة في نحوها الإيجابي، أمام أزمة اليوم القيمية والخُلُقية، وذلك باعتبار أنَّ الكائن لا تتحقّق كينونته إلا بمحاولة فهم الأثر العميق الذي حوَّل الإنسـان إلى كائن سامٍ تتحقَّق كينونته بالتفكُّر والمقاومة ضدّ أشـكال الاستيلاب الثقافي كلّها، وذلك من خلال البحث عن المقوّمات الجوهرية للدولة العادلة التي تقوم على ركيزتي الحُرّية والمساواة، بيد أنَّ الإيجاب لا يخلو من السلب الذي تظهر فيه الأنوثة وقـد اصطدمت بوضع ما بعد الحداثة وأزمته القيمية، التي نجحت فيها الرأسـمالية بتحويل منطق المقاومة من أجل التحرُّر إلى منطق التسليع الإنساني. ومنه، فحاجتنا اليوم وضع الأزمة محلّ نقد وتأمُّل للثقافة الاستهلاكية التي تختزل الإنسان في الظاهر فقط (الجسد/الصورة) إلى الباطن الذي يردّ الاعتبار للبُعد الخُلُقي والروحي للوجود الإنساني.

قائمة المصادر والمراجع:

- زيغمونت باومان: الحياة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية، بيروت، ط١، ٢٠١٢.
- زيغمونت باومان: الحُرّية، ترجمة فريال حسن خليفة، مدبولي، القاهرة، ٢٠١٢.
- جيل ليبوفتسكي وإليت رو: الترف الخالد من عصر المقدس إلى زمن الماركات، ترجمة الشيماء مجدي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط١، ٢٠١٨.
- جيل ليبوفتسكي: مملكة الموضة: زوال متجدد: الموضة ومصيرها في المجتمعات الغربية، ترجمة دينا منظور، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٧.
- نرجس روكر: فيمينيزم: مفهومها، أصولها النظرية وتياراتها الاجتماعية، ترجمة هبة ضافر، العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، ط١، ٢٠١٩.
- عبد الله الغدامي: الليبرالية الجديدة: أسئلة في الحُرّية والتفاوضية الثقافية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٣.
- كاترين أودار: ما الليبرالية؟ الأخلاق، السياسة، المجتمع، ترجمة سناء الصاروط، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠٢٠.
- فتحي المسكيني: الجندر الحزين، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٢.
- نيتشه: أفول الأصنام، ترجمة حسان بورقية ومحمد الناجي، الشرق، ط١، ١٩٩٦.
- عبد الرزاق الدواي: موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر: هيدغر، ليفي ستراوس، ميشيل فوكو، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
- جوديث باتلر: قلق الجندر: النسوية وتخريب الهوية، ترجمة فتحي المسكيني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠٢٢.
- جون جاك روسو: إميل، ترجمة عادل زعيتر، وكالة الصحافة العربية، مصر، ٢٠٢١.
- فريديريك غرو: العصيان: من التبعية إلى التمرد، ترجمة جمال شحيد، دار الساقي، ط١،

بيروت، ٢٠١٩.

- البشير عصام المراكشي: جناية النسوية على المرأة والمجتمع، دلائل للنشر، الرياض، ط١، ٢٠٢٠.
- (مارتن هايدغر): وحده الله بإمكانه أن يمنحنا النجاة، حوار أجرته مجلة دير شبيغل مع مارتن هايدغر، ورد ضمن مجلة الاستغراب، العدد الخامس، ٢٠١٦.
- Alain de Botton: Status Anxiety, Pantheon Books, New York, 2004.
- Jean-Jacques Rousseau: The Social Contract, trans. Maurice Cranston, Penguin Books, New York, 1968.
- Mary Wollstonecraft: A Vindication of the Rights of Woman, ed. Janet Todd, Oxford University Press, Oxford, 2008.
- Simone de Beauvoir: The Second Sex, trans. Constance Borde and Sheila Malovany-Chevallier, Vintage Books, New York, 2011.
- Terence Ball and Richard Bellamy: eds., The Cambridge History of Twentieth-Century Political Thought, Cambridge University Press, Cambridge, 2003.
- Judith Butler: Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity, Routledge, New York, 2007.